المحاضرة الأولى: مفهوم الحداثة والمعاصرة.

أولاً: مفهوم الحداثة:

مصطلح الحداثة من أكثر المصطلحات النّقدية المعاصرة اشكالية وإثارة للبس والغموض، يقول الشّاعر المكسيكي، أوكتافيو باث: "**نحن نتابع الحداثة في تحولاتها التي لا تتوقف، ولكننا لا نتوصل أبدا الى القبض عليها... الحداثة هي اللحظة ذاتها، انها ذلك الطائر الموجود في كل مكان ولا مكان، وعندما نريد ان نقبض عليه حيا فانه يفتح جناحيه ويطير متحولا الى قبضة من المقاطع والحروف**".1

والحداثة في أصلها ونشأتها مذهبٌ فكريٌ غربيٌ، ولد ونشأ في الغرب، ثم انتقل منه إلى العرب. حيث يُرجع البعض زمن عملية التحديث في الأجناس الأدبية، لا سيما الشعرية، إلى أواخر القرن التاسع عشر، الأمر الذي قاد إلى «**الحداثة الشعرية في أواخر النصف الأول من القرن العشرين وطوال النصف الثاني منه**."2

ويعترف كثير من النّقاد ومنهم الشّاعر أدونيس بحيرتهم أمام دلالة هذا المصطلح، فالحداثة في المجتمع العربي إشكالية معقدة، لا من حيث علاقاته بالغرب وحسب، بل من حيث تأريخه الخاص أيضاً3.

أ-الحداثة لغة.

تنوع مدلول لفظة "حداثة " واشتقاقاتها في المعاجم العربية، والمتتبع لها يجد أنّ:

- "الحديث" هو: الجديد من الأشياء4.
- ووهي مشتقة من الفعل: حدث، والحديث نقض القديم، ... والحدوث: كون الشّيء لم يكن ... والمحدث: الأمر المبتدع5.
- والحداثة: سن الشّباب6.

وبمقابل لفظة "حداثة" في العربية، نجد اللّفظتين: (Modernity)، (Modernism)، في الإنجليزية واللّتين تختلفان بين لفظتي: حداثة، وعصرية أو معاصر.

وإنّ كلمة حديث (modern) بالإنجليزية تتشكّل من الكلمة اللاتينية (modo) بمعنى (توا) أي حالا، ويشير رايموند وليامز (Raymond williams) إلى أنّ الاستعمالات الانجليزية المبكرة كانت قريبة من استعمالنا أحيانا لكلمة معاصر لنعني بها شيئا يوجد في لحظة الكلام أو الكتابة.7

يقول محمد مصطفي هدارة: " إن لفظ (Modernity)، تعني المعاصرة والعصرية، وهي عنده: **"إحداث تغييروتجديد في المفاهيم السّائدة والمتراكمة عبر الأجيال نتيجة تغيير اجتماعي أو فكري أحدثه اختلاف الزّمن** ."

وأما لفظ: (Modernism)، فتعني "الحداثة"، **التي هي عنده مذهب أدبي أو نظرية فكرية لا تستهدف الحركة الإبداعية وحدها، بل تدعو إلى التّمرد على الواقع، والانقلاب على القديم الموروث بكل جوانبه ومجالاته**."8

ويفرّق الدكتور خضر عريف، من جهته، في كتابه (الحداثة مناقشة هادئة لقضية ساخنة) بين مصطلح الحداثة، والتّجديد، والمعاصرة، فيقول: "والذي يدفع إلى ذلك الظّن الخاطئ، هو الخلط بين مصطلح (modernism)، والمعاصرة (modernity)، والتّحديث (modernization)، وجميع تلك المصطلحات كثيرا ما تترجم إلى "الحداثة"، على الرّغم من اختلافها شكلا ومضمونا وفلسفة، وممارسة، والواقع أنّ الاتجاه الفكري السليم يتفق مع التّحديث، ولكنه لا يتفق مع الحداثة. وإن يكن مصطلحا (modernity) و(modernization) يمكن الجمع بينهما ليعنيا المعاصرة أو التّجديد، فإنّ مصطلح (modernism) يختلف عنهما تماما، إذ ينبغي أن نفرّق بين مصطلحين أجنبيين، من المؤسف أنّ كليهما يترجم ترجمة واحدة، وهي (الحداثة)...

أمّا المصطلح الأوّل فهو: (modernity) الذي يعني إحداث تجديد وتغيير في المفاهيم السّائدة المتراكمة عبر الأجيال نتيجة وجود تغيير اجتماعي أو فكري أحدثه اختلاف الزمن.

أمّا الاصطلاح الثّاني فهو: (modernism) ويعني مذهبا أدبيا، بل نظرية فكرية لا تستهدف الحركة الإبداعية وحدها، بل تدعو إلى التّمرّد على الواقع بكلّ جوانبه السياسية والاجتماعية، والاقتصادية، وهو المصطلح الذي انتقل إلى أدبنا العربي الحديث، وليس مصطلح (modernity) الذي يحسن أن نسميه المعاصرة؛ لأنّه يعني التّجديد بوجه عام دون الارتباط بنظرية ترتبط بمفاهيم وفلسفات متداخلة متشابكة...9

والمصطلح (الحداثة) يتداخل، ويشتبك مع مجموعة كبيرة من المصطلحات النّقدية القديمة والحديثة، ومنها: التّجديد، والمعاصرة، والتّحديث، والمحدث، والحديث، والطليعة، وما سيصطلح على تسميته بالحداثانية كمقابل للمصطلح الغربي (المودرنزم) (Modernism) "10

ب-الحداثة في الاصطلاح.

ب 1-عند الغربيين:

تبلور مفهوم مصطلح الحداثة منذ أن تعرض له الشاعر الفرنسي "شارل بودلير، Charles Baudelaire"، الذي يعتبر الأب الروحي للحداثة، بالقول **": ما أعنيه بالحداثة هو العابر والهارب والعرضي، إنها نصف الفن الذي يكون نصفه الآخر هو الأبدي الثابت."** **11**

توالت، بعد ذلك، تعاريف مصطلح الحداثة، وتنوّعت من ناقد لأخر، فقد رأى الناقد الفرنسي **(رولان بارت**، Roland Barthes) أنّ الحداثة: **"... انفجار معرفي لم يتوصل الإنسان إلى السيطرة عليه"**12.

وقال فيها " جان بودريار، Jean Baudrillard**": " ليست الحداثة مفهوما سوسيولوجيا أو مفهوما سياسيا أو مفهوما تاريخيا يحصر المعنى، وانما هي صيغة مميزة للحضارة تعارض صيغة التقليد...ومع ذلك تظل الحداثة موضوعا عاما يتضمن في دلالته إجمالا الإشارة إلى التطور التاريخي بأكمله والى التبدل في الذهنية."13**

وعرّفها شاعر الفرنسي، آخر، وهو " ستيفان مالارميه، Stéphane Mallarmé"، الذي يعتبر من رواد الحداثة في الشعر، أيضا، بالقول: **" إذا كانت الحداثة تفكيرا في اللا مفكر، فيه فإنها شعريا بحث عما لم يحدث."14** وقد امتاز شعره بالغموض الذي يعتبر من أهم عناصر شعر الحداثة.

أما الروائي الفرنسي "غوستاف فلوبير، Gustave Flaubert"، فيرتبط مفهوم الحداثة عنده بالزمن وفعل الكتابة، فيقول**: " الحداثة هي التعصب للحاضر ضد الماضي"؛ بمعنى أن الوعي الحداثي ليس تشبعا لسلطة ماضوية، وحنينا إلى أصل تليد، وحقبة ذهنية، بل هو تمجيد للحاضر، وانفتاح على الآتي."15**

ب 2-عند العرب:

يذهب يوسف الخال، إلى أن الحداثة جوهر لا شكل، وتطوّر عقلي، يتوغّل به الإنسان في روح العصر، ويتّخذ موقفا جديدا من قضايا الحياة، ومن ثم فالحداثة الشّعرية-عنده-ليست مجرد تحطيم لوحدة البيت، أو تنويع القوافي، أو التّمسك بالوزن، بل تعبير عن عقلية جديدة تنظر إلى الحياة بمنظار حديث، فالشّكل الجديد دون مضمون جديد افتعال كذاب.16 ولذلك

تجده يقول: إنّ الحداثة: "**حركة إبداع تماشي الحياة في تغيّرها الدّائم، ولا تكون وفقا لزمن دون زمن، فحيثما يطرأ تغيير على الحياة التي نحياها، فتتبدل نظرتنا إلى الأشياء، يسارع الشّعر إلى التّعبير عن ذلك بطرائق خارجة عن السلفي، والمألوف.**"17

ويذهب أدونيس إلى أنّ الحداثة تعني: "**الصّراع بين النّظام القائم على السّلفية، والرّغبة العاملة لتغيير هذا النّظام، وقد تأسّس هذا الصّراع في أثناء العهدين الأموي والعباسي، حيث نرى تيارَين للحداثة:**

- **<u>الأول سياسي فكري</u>، يتمثل من جهة في الحركات الثّورية ضد النّظام القائم، بدءاً من الخوارج وانتهاءً بثورة الزّنج مروراً بالقرامطة، والحركات الثّورية المتطرفة، ويتمثل من جهة ثانية في الاعتزال والعقلانية الإلحادية في الصّوفية على الأخص. وتلتقي هذه الحركات الثّورية الفكرية حول هدف أساسي هو الوحدة بين الحاكم والمحكوم في نظام يساوي بين النّاس اقتصادياً وسياسياً، ولا يفرق بين الواحد والآخر على أساس من جنس أو لون.**

-**<u>أما التيار الثّاني، ففني</u>، وهو يهدف إلى الارتباط بالحياة اليومية كما عند أبي نواس، وإلى الخلق لا على مثال خارج التّقليد وكل موروث عند أبي تمام.**"18. وبذلك توحدت الحداثة بمفهوم أدونيس على صعيد السّياسة، بين الحاكم والمحكوم، وتحرر- على صعيد الفن-الشّعر من قيوده ومن تعريفاته ونظرياته وأطره المثبتة، وتولدت الحداثة تأريخيا من التّفاعل أو التّصادم بين موفقين أو عقليتين، في مناخ من تغير الحياة، ونشأة ظروف وأوضاع جديدة.19

أما كمال أبو ديب فيعرف الحداثة بأنها: "**... هي وعي الزّمن بوصفه حركة تغيير... والحداثة اختراق لهذا السّلام مع النّفس ومع العالم، وطرح الأسئلة القلقة التي لا تطمح إلى الحصول على الإجابات نهائية، بقدر ما يفتنها قلق التّساؤل وحمى البحث، الحداثة جرثومة الاكتناه الدائب القلق المتوتر، إنها حمى الانفتاح.**"20

وتبين خالدة سعيد أن الحداثة "**ثورة فكرية وليست مجرد مسألة تتصل بالوزن والقافية، أو بقصيدة النّثر، أو نظام السّرد، أو البطل، أو إطار الحدث، أو تثوير الشّكل المسرحي؛ لأن هذه الجوانب تكتسب دلالتّها من الموقف العام، وهي تجسيد لهذا الموقف.**"21؛ بمعنى أن الحداثة لا تنحصر في شكل واحد للكتابة، وإن عبر هذا الشّكل عن موقف حداثي في وقت من الأوقات، وترى– خالدة-أن الحداثة وضعية فكرية لا تنفصل عن ظهور الأفكار والنّزعات التّاريخية التّطورية، وإنها تتبلور في اتجاه تعريف جديد للإنسان عبر تحديد جديد لعلاقته بالكون.22

ونختم بمفهوم جامع للحداثة نجده عند عبد الله العروي الذي يعتبر أنّ الحداثة: ...واقعة تاريخية حدثت في منطقة من العالم ولا راد لحدوثها، والتي انطلقت زمنيا في أوروبا في القرن ال17م. وارتبطت بعدة ثورات متلاحقة، ومتداخلة، الثورة الاقتصادية، الثورة الثقافية (احياء التراث اليوناني القديم)، ثورة علمية (قوامها المنهج، والتجربة، الملاحظة...)، ثورة دينية (قوامها الإصلاح الديني الذي نزع عن الكنيسة دورها المنفرد، أو استئثارها بتأويل معنى المقدس، وثورة فكرية (قوامها تمجيد العقل والاستخدام الأقصى له). وامتدت إلى باقي العالم عن طريق العديد من الوسائط منها: الاستعمار، الرحلات، التبشيرية، والسياحية، وسائل الاتصال...فالحداثة: قطيعة، انفصال، ثورة، جدة، تظهر بداية على مستوى الفكر.

- ونخلص في الأخير إلى أنّ أهم عناصر الحداثة التي نادى بها روّادها هي:

1. الحداثة معايشة للواقع بكلّ أبعاده.
2. الحداثة استجابة لقضايا العصر وطرقه في الرؤية والتّفكير، والتّعبير، والتّذوّق.
3. التّعبير بالصّورة الحسّية المجسّدة، وبالكلمات، والعبارات الحية عند الناس، لا كما هي في بطون الكتب، والقواميس.
4. الحداثة: حداثة الموقف، والانفعال، واللّغة.
5. الحداثة: شكل محدث، ومضمون محدث.
6. الحداثة تكمن في طاقة التّغيير والتّمرّد.
7. الحداثة ليست نقيضا للماضي، بل استمرار متطوّر لأفل ما فيه.23
8. الحداثة هي: أداة للإبداع الخلاّق والرّؤى المبتكرة.24

ثانيا: أنواع الحداثة:

للحداثة أنواع كما يقسمها أدونيس:25

أ-الحداثة العلمية :وتعني إعادة النّظر المستمرة في معرفة الطبيعة للسيطرة عليها، وتعميق هذه المعرفة وتحسينها باطراد.

ب-حداثة التّغيرات الثّورية-الاقتصادية-الاجتماعية-السّياسية: فالحداثة الثّورية تعني نشوء حركات ونظريات وأفكار جديدة، ومؤسسات وأنظمة جديدة تؤدي إلى زوال البنى التّقليدية القديمة في المجتمع، وقيام بنى جديدة.

ج-**الحداثة الفنية** :وهي تساؤل جذريٌ يستكشف اللغة الشّعرية ويستقصيها، وافتتاح آفاق تجريبية جديدة في الممارسة الكتابية، وابتكار طرق للتعبير تكون في مستوى هذا التّساؤل، وشرط هذا كله الصّدور عن نظرة شخصية فريدة للإنسان والكون.

- **الحداثة والمعاصرة.**

اشتقت كلمة (Modernism) من الكلمة Mode، التي تعني **"الحالي والمعاصر، أو قريب العهد، وهي لفظة تتسم بتوسيع دلالي واضح تارة وغامض أحيانا، إذ لا نعثر لها في القواميس الفرنسية على تعريفات دقيقة ومنتهية، وعادة ما تُقدّمُ كطرف نقيض لما هو قديم، دون تخصيص بيّن".**26

ومن المصطلحات التي تتداخل مفهوميا مع مصطلح الحداثة: المعاصرة Contemporain، والتي تعود إلى أصلها اللاتيني: Contemporaneus، ومعناه ما يأتي في وقت واحد أو يزامن، ويعني أيضا ما ينتمي إلى الحاضر 27. ويميّز محمد أركون بين المصطلحين فيعتبر أنّ **"الحداثة ليست المعاصرة، فقد يعاصرنا أشخاص لا علاقة لهم بنا ولا بالحداثة والعصر، أناس ينتمون عقليا وذهنيا لمرحلة القرون الوسطى، وقد توجد في القرون السّابقة شخصيات تمثّل الحداثة".28**

ويميّز جابر عصفور بين المصطلحين بقوله: **"الحداثة فعل يقوم على الاختيار الواعي، المتجاوز، على عكس المعاصرة التي هي مجرّد وجود في الزّمان لا ينطوي على هذا النّوع من الاختيار بالضّرورة".29**

- **الحداثة والتحديث.**

ميز بعض الباحثين بين التّحديث الذي هو "التّحوّل الاقتصادي والتكنولوجي كما جرى تاريخيا ولأوّل مرة في أوربا" **وبين الحداثة التي هي:** "مجموعة العناصر والعلاقات التي يتألّف منها الكيان الحضاري المدعو حديثا"**30. لذلك يعتبر جابر عصفور أنّ الحداثة ليست متعلّقة في فراغ، فهي قرينة التّحديث، حيث** "...يتحدّد التّحديث بتغيير أدوات الإنتاج المادية في المجتمع وتثوير علاقاته، وتتحدّد الحداثة في الفكر والإبداع بحيث يكونان وجهين لعملة واحدة، لا ينفصل طرفاها في علاقتهما الجدلية"**31. وقد يصل الأمر حد أن تكون** ...لحظة الحداثة قرينة لحظة التّحديث (**كما نجد في البيئة الغربية**)، وقد لا تتطابق اللّحظتان تماما (**كما نجد في البيئة**

العربية)، ولكن ما بينهما من علاقة متعدّدة الأبعاد تجعل من انبثاق إحدى اللّحظتين علّة، أو بشارة، أو علاقة على انبثاق الثّانية. **32**

وفي هذا السياق يميز محمد أركون في كتابه **الإسلام والحداثة** بين المفهومين: "**فالحداثة موقف للروح أمام مشكلة المعرفة**، إنها موقف للروح أمام كل المناهج التي يستخدمها العقل للتوصل إلى معرفة ملموسة للواقع. أما التحديث فهو مجرد إدخال للتقنية والمخترعات الحديثة (بالمعنى الزمني للكلمة) إلى الساحة العربية أو الإسلامية، نقصد إدخال المخترعات الأوروبية الاستهلاكية وإجراء تحديث شكلي أو خارجي، لا يرافقه أي تغير جذري في موقف العربي المسلم للكون والحياة."33